

الأبعاد الانسانية في عهد الامام علي (ع) لمالك الاشر

الاستاذ الدكتور

عبد الكاظم محسن الياسري

كلية التربية للبنات

جامعة الكوفة

المقدمة

الامام علي عليه السلام سيد الوصيين وإمام المتقين ومعدن البلاغة والفصاحة ووارث علم الرسول وباب مدينة العلم وقائد الغر المحجلين وأمير المؤمنين ولهذه المهمة كتب عهده لمالك الاشر لأنه هو المسؤول عن قيادة الامة وحماية مبادئ الدين الحنيف وإقامة المجتمع الاسلامي المنشود وإفشاء العدل بين الرعية ورد المظالم عن الناس وإعطاء كل ذي حق حقه ورد الباطل من أي جهة اتى والوقوف بوجه الظالمين أياً كانوا مادام في هذا رضا الله سبحانه وحماية دماء المسلمين والحفاظ على بلادهم. ومن هذه المهمات العظيمة وغيرها مما يتصل بإدارة الدولة جاء عهد الامام (ع) لمالك الاشر حين ولاه مصر بعد استشهاد محمد ابن ابي بكر واضطراب البلاد وأراد ان يكون هذا العهد دستوراً يعمل به الولاة في جميع امصار الدولة الاسلامية ويفيد منه المحدثون كما افاد منه القدامى لأنه من وضع الامام علي (ع) وهو وصي رسول رب العالمين وهكذا كان فلا يزال المنظرون في حقوق الانسان يستفيدون من كثير مما ورد في هذا العهد.

ومالك الاشر صحابي جليل عاش مع الامام علي وشارك في فتوح البلاد الاسلامية وكان فارساً شجاعاً ومهيباً في القتال ترتجف نفوس الاعداء لهيبته وقد جعله الامام علي ساعده الايمن حين تولى الخلافة واعتمد عليه في كل المعارك التي خاضها من اجل الحق والدين وكان له الاثر الكبير في الانتصارات التي حققها جيش الامام في الجمل وصفين والنهروان وأصبحت له رهبة في نفوس الاعداء وهو قائد جيوش الامام.ومن هنا جاء اختباره لتولي مهمة الادارة في مصر وإقامة العدل فيها وحمايتها من الاعداء والدفاع عن اهلها ونشر العدل بينهم وقد وضع له الامام كل الاسس التي يمكن ان يفيد منها في ادارة البلاد وأوضح المناهج التي يسير عليها في التعامل مع الرعية في عهد من اطول النصوص في نهج البلاغة وقد صاغه الامام بأسلوبه الرائع وضمنه كل فنون البلاغة والفصاحة مع كونه وثيقة رسمية لإدارة بلاد مضطربة. ولكن الامور سارت بغير ما اراد الامام واستشهد هذا الرجل العظيم وهو في طريقه الى مصر بفعل اعمال الاعداء وقد حزن الامام كثيراً لفقده ووصفه بأنه كان له كما كان هو لرسول الله وهو وصف عظيم لم يحظ به احد من المسلمين.ورحل مالك ولكن العهد بقي وثيقة اجتماعية وسياسية ودينية افاد منها ويفيد منها الماضون واللاحقون.في هذا البحث محاولة لبيان رؤية الامام عليه السلام لبناء مجتمع الاسلامي المنشود من خلال بيان او تضمنه هذا العهد من ابعاد انسانية لا تقتصر على عصر ولا يحدها زمان.

سلام عليك امير المؤمنين ورحمك الله ابا ابراهيم والحمد لله رب العالمين وهو ولي التوفيق والسداد.

الامام علي ابن ابي طالب عليه السلام وصي رسول الله (ص) وباب مدينة علمه و وراث كل شيء عنه وهو الذي قال عنه رسول الله (انا مدينة العلم وعلي بابها) ^١ وخاطبه قائلاً (انت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي من بعدي) ^٢ . وقد قام دين الاسلام بعلي وأهل بيته وهو ليس قائداً عسكرياً حسب وإنما هو سياسي من الطراز الاول ومصالح اجتماعي لا يجاربه احد وهو امام البلغاء وسيد الفصحاء وقد تمثل كتاب الله وسنة رسوله فأتقن ما فيهما وأفاد منهما في بناء المجتمع الاسلامي الذي ينشده الدين الاسلامي ومن هنا جاءت اقواله ووصاياه وما تركه من ثروة لغوية جمعت في نهج البلاغة لتمثل دستور عمل للدولة الاسلامية وهي صالحة لكل زمان ومكان وليست مرحلية مثل غيرها من النصوص . وقد

تضمنت معارف كثيرة شملت جميع ما يتصل بحياة المجتمع الاسلامي المنشود. ان الناظر في هذا الكتاب يجد فيه كل ما يتصل بمناحي الحياة وبناء المجتمعات الانسانية بدءاً من قدرة الله وعجائب خلقه وانتهاءً بالوصايا والعهود ومحاوره الاعداء والحكم والمواعظ . وفي عهده لمالك الاشر حين عهد اليه بولاية مصر نجد كل ما يلزم الحاكم من توجيهات وقواعد وإحكام تخص ادارة الولايات وهو ليس عهداً خاصاً لمالك الاشر ومصر وإنما هو دستور دائم يتضمن كل قواعد التعامل والإصلاح الاجتماعي وهو صالح لكل مكان وزمان ويفيد منه القدامى والمحدثون على حد سواء ممن يتولى ادارة الدول والولايات في بلدان العالم الاسلامي فهو بهذه الصفة دستور عمل لكل العاملين في ادارة المدن والولايات والمنظمات الاسلامية والعالمية ومثل ما افاد منه العرب يفيد منه غير العرب ايضاً وقد عملت بعض المنظمات على ترجمة هذا العهد الى لغات اخرى غير العربية وقد اجمعت الدراسات التي عنيت بهذا العهد على انه يمثل دستوراً متكاملًا للحكم الاسلامي وهو وثيقة في الإصلاح الاجتماعي يستفاد منها في بناء المجتمعات الصالحة ويضم جميع المبادئ والأسس التي جاء بها الدين الاسلامي الحنيف مستمداً الافكار التي وردت فيه من القرآن الكريم وسنه الرسول (ص) ويعد هذا العهد وثيقة دستورية لتنظيم الحياة السياسية والدينية والاجتماعية سبقت بقرون جهود المنظرين للسياسة والاجتماع وحقوق الانسان في العالم المتمدن ولقد رسم الامام في هذا العهد الخطوط العامة لمن يتولى امانة البلاد. وهو خطة عمل متكاملة الجوانب تتضمن كل ما يمارسه الوالي في ادارته البلاد وعلى من يتولى امور المسلمين ان يلتزم بما ورد في هذا العهد من اوامر وتوجيهات ووصايا ، وقد تضمن العهد تحديداً دقيقاً للواجبات والحقوق في المجتمع الاسلامي وحدد ما يترتب على الوالي اتباعه في تعامله مع الرعية وقد مثل ذلك الأسس التي بني عليها هذا العهد. وانطلاقاً من مبدأ اجتماعي مشهور هو ان المجتمع الانساني لا يمكن ان يكون طبقة واحدة يمكن التعامل معها وإنما يتألف كل مجتمع من عدد من الطبقات تتعايش في بيئة واحدة وتتكامل مع بعضها في بناء هذا المجتمع فأن طبيعة التعامل مع كل طبقة تختلف عن طبيعة التعامل مع الطبقة الاخرى وقد وضع الامام في هذا العهد تقسيماً فريداً للطبقات الاجتماعية التي يمكن ان يتعامل معها الوالي وحدد اسلوب التعامل مع كل طبقة.

قسم الامام المجتمع في مصر التي سوف يتولى مالك الاشرى امرها على عدة طبقات وقد بني هذا التقسيم على اساس علمي دقيق هو ان هذه الطبقات وان اختلفت في ما بينها ألا انها في المحصلة تؤلف مجتمعاً واحداً وهي ترتبط مع بعضها ارتباطاً وثيقاً ولا يصلح بعضها ألا ببعض ولا يستغني بعضها عن بعض يقول (واعلم ان الرعية طبقات لا يصلح بعضها ألا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض)^٣ وهذا النص يعني ان هذه الطبقات تمثل وحدة متكاملة من الناس ترتبط برباط وثيق يوحد في ما بينها ولا يمكن لأي منها ان تمارس دورها بعيداً عن الطبقات الاخرى وانما تكون ممارستها من خلال التكامل فيما بينها وحاجة كل منها الى الاخرى.

والطبقات التي حددها الامام في هذا العهد وبين طبيعة التعامل مع كل واحدة منها هي :-

١- طبقة الجنود: يقصد الامام بهذه الطبقة الرجال المدافعين عن الدين والبلاد وقد وصف الامام رجال هذه الطبقة بأنهم حصن الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبيل الامن ولا تقوم الرعية الا بهم^١. الناظر في هذه الصفات التي ربط الامام بينها بحرف العطف الواو وحذف منها المبتدأ للدلالة على قوة الترابط بين هذه الصفات لكي ترسم لنا صورة هؤلاء الرجال فهم عماد بناء الدولة والدفاع عنها وهم زينة الوالي التي يفتخر بها ويبين قوته وهيبته امام الأعداء وهم حفظة البلاد والعباد فهم سور البلد الحصين. ولكي يؤدوا هذا الواجب على اتم وجه من واجب الوالي ان يوفر لهم حاجاتهم من المال الذي يأتي من موارد الدولة ليواجهوا به عدوهم ويعتمدوا عليه في اصلاح امورهم وسداد حاجاتهم. وفي ضوء هذا ولأهمية الدور الذي يؤديه رجال هذه الطبقة يحدد الامام لكل من يتولى امور البلاد واجبات هذه الطبقة وحقوقها ويبين تكاملها مع الطبقات الاخرى^٢ ان هذه الطبقة لا تعمل بمعزل عن الطبقات الاخرى انما بها حاجة الى الطبقات الاخرى التي يتألف منها المجتمع الاسلامي.

٢- طبقة كتاب العامة والخاصة:- تمثل هذه الطبقة طائفة الموظفين الذين يعتمد عليهم الوالي في ادارة شؤون الولاية وادارة المراسلات العامة والخاصة مع حكام الولايات وقادة الجيوش وكبار المسؤولين وتقع على عاتق هذه الطبقة مهمة جباية واردات الدولة والأمانة وجمعها والتي تمثل العماد الاقتصادي وتدفع منها رواتب العاملين والجنود وتنفذ المشاريع وتقدم الخدمات وتدعم بيت المال بما يحتاج اليه لدفع المعونات والهبات لمن يستحقها. وتمثل هذه الطبقة الاساس الاقتصادي الذي تبنى عليه الدولة ولها اهمية كبيرة لذا نجد الامام يلفت نظر من يتولى امور المسلمين الى الدقة في اختيار العاملين في هذه الطبقة ومراقبة اعمالهم بدقة لانهم يمثلون القوة الاقتصادية والادارية التي تقوم عليها امور الولاية.

٣- طبقة القضاة:- وتمثل هذه الطبقة وما يتصل بها من عاملين في ميدان القضاء اساس العدل في الولاية والفصل بين الناس في المنازعات والحكم في القضايا الخاصة والعامة . ولا بد ان تحظى هذه الطبقة باهتمام الوالي وان يحسن الوالي اختيار العاملين فيها لان هؤلاء هم اساس العدل واعادة الحقوق الى نصابها ومن هنا حظي رجال هذا المسلك باهتمام الحكومات قديماً وحديثاً لان اشاعة العدل اساس الملك ومن هنا نجد الامام يحدد في عهده مواصفات من يتولى مهمة الحكم بين الناس لمن يتولى امور البلاد وفي ضوء هذه الصفات يقوم الوالي باختيار القضاة

يقول (ثم اختر للحكم بين الناس افضل رعيته ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادي في الزلة ولا يحصر عن الفياء الى الحق اذا عرفه)٤ ان اختيار القضاة للفصل بين الناس من مهمات الوالي ومن هنا نجد الامام يحد المعايير التي يتم بموجبها اختيار هؤلاء القضاة ويوجب على الوالي ان يهيئ لهؤلاء القضاة ما يحتاجونه لمداومة حياتهم بعيداً عن المؤثرات التي قد تجعلهم يحدون عن طريق العدل ويبتعدون عن الحق. ان حسن الاختيار وسد الحاجة يجنب هؤلاء كثيراً من المزالق التي قد تقود اليها النفس الامارة بالسوء. وفي ضوء هذا يمكن تفسير ما توليه الحكومات الحديثة لطبقة القضاة والحكام.

٤- طبقة التجار واهل الصناعات :- ويمثل اهل هذه الطبقة عماد البلاد في الجانب الاقتصادي وهم

الذين يعتمد عليهم الناس في توريد ما يحتاجونه من مختلف المواد اللازمة لأدامة الحياة ويمثلون الوجه الآخر للولاية من خلال اتصالاتهم وتعاملهم مع تجار الولايات الاخرى وقد اوصى الامام في عهده الولاية بهذه الشريحة من المجتمع وجعلهم محط عنايتهم قال (استوص بالتجار وذوي الصناعات خيراً سواءً

المقيم منهم والمضطرب بماله فأنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المبادئ والمطرح)^٥

ان هذا النص يدلنا على ان الامام يركز في توجيهاته على كل ما فيه صلاح المجتمع الانساني وسد ما تحتاجه الرعية من موارد الغذاء والصناعات وهي مهمة يتكفل بها التجار وارياب الحرف ولذا نجد الامام يوصي بهم ويدعو الى مراعاة ظروفهم لان الحياة سوف تتوقف اذا لم يحم هؤلاء بواجباتهم فأنهم عماد الحياة في الولاية والعاملون على توفير حاجة السكان من مواد الغذاء والبناء.

٥- اهل الذمة:- وهذه الطائفة تمثل الاقوام غير المسلمين والذين يدفعون الجزية للدولة. ووصية الامام

بهؤلاء دليل على اهتمام الامام بجميع شرائح المجتمع من مسلمين وغيرهم ممن يدفعون الخراج للدولة. وهو مبدأ يمثل العدالة في الدين الاسلامي . ويركز الامام في وصيته الى الولاية على الاهتمام بأعمار الارض واصلاح اهل البلاد قبل ان يطلبون منه دفع الخراج ذلك ان صلاح الدولة يبدأ بصلاح امور اهلها قال (ومن طلب الخراج بغير عماره اخرج البلاد واهلك العباد)^٦ ان الامام يربط بين الوضع الاقتصادي للفرد وبين ما يطلب كمنح فلا يريد تكليف هذه الطبقة فوق ما يطيقون وتحميلهم ما لا يستطيعون. هنا تتمثل عدالة الامام في مراعاة الناس على مختلف طبقاتهم ومعتقداتهم وهكذا هو الانسان اما اخ لك في الدين او مماثل لك في الخلق.

٦- عامة الناس من ذوي الحاجات:- وتمثل هذه الطبقة عامة الناس من الفقراء وذوي الحاجات الذين

يعيشون في هذه البلاد او غيرها ممن يتولى امرها الولاية. وقد بين الامام ان الله سبحانه قد قسم لكل من هؤلاء نصيبه ووضع حده فريضة وهو يشير الى التشريعات التي حددها الدين الاسلامي وما نزل به القرآن الكريم وما فرضه من حقوق لمثل هؤلاء المتمثلة في الزكاة وغيرها.

وقد نبه الامام من يتولى امور المسلمين على اهمية رعاية هذه الشريحة مستعملاً اسلوب الاغراء والحث يقول (ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين واهل البؤس فأن

في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً واحفظ الله ما اسنحفظك من حقوقهم واجعل لهم قسماً من بيت مالك^٧ ان هذا النص يدل على دعوة الامام الولاة الى رعاية ابناء هذه الطبقة وتخصيص ما يحتاجونه من بيت المال لان الله جعل الوالي وصياً على حقوق هؤلاء الناس فالواجب يملى عليه ان يحافظ على ما استحفظه الله عليه من حقوق هؤلاء. ان ما تقدم يمثل الطبقات الاجتماعية التي حددها الامام في عهده لمالك الاشتهر وبين طرق التعامل مع كل واحد من هذه الطبقات .

واجبات الولاة

لا ريب في أن الامام اراد ان يكون هذا العهد شاملاً لكل ما يتصل بأدارة الدولة او الولاية واراد من خلاله تحديد الواجبات التي على الوالي في أي مكان الالتزام بها وتنفيذها فهو بعد ان بين طبيعة التعامل مع الطبقات التي يتألف منها المجتمع عرج على الاشارة الى اهم الواجبات التي على من يتولى امور البلاد ان يلتزم بها وينفذها مستعملاً طائفة من صيغ الامر المعروفة في اللغة. لقد اشار الامام في بداية ما اوصى به مالكا الى الواجبات التي الزمه القيام بها مستعملاً صيغة المصدر للدلالة على الامر. والامر بالمصدر اقوى من الامر بالفعل او غيره من صيغ الامر الاخرى لان الامر بالمصدر يتصف بقوة التوكيد على التنفيذ والالتزام لذا قال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) الاسراء/٢٣. ومن هذه الواجبات:-

١- الدفاع عن البلد:- قال الامام (هذا ما امر به عبد الله علي امير المؤمنين مالك بن الحارث الاشتهر في عهده اليه وحين ولاه مصر: جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح اهلها وعمارة بلادها)^٨

تضمن هذا النص اكثر من مصدر استعمله الامام لبيان واجبات الوالي سواء اكان مالكا ام غيره ومن بينها جهاد العدو والدفاع عن الارض. ان من اكبر الواجبات والمسؤوليات التي يجب على الوالي تحملها مسؤولية الدفاع عن الارض وحماية الحدود والوقوف بوجه الاعداء والطامعين لان هذا المبدأ يمثل قوة سلطان الوالي وعزته فهو المسؤول عن تهيئة مستلزمات الدفاع عن البلاد واعداد المقاتلين وتجهيزهم للوقوف في وجه من يحاول الاعتداء على البلاد او الحاق الاذى بأهلها. ويمثل هذا المهمة الكبرى للوالي ولذا نجد الامام (ع) يتألم كثيراً حين يسمع بأذى يلحق بمدينة من المدن التي تحت ولايته كما حدث في مدينة

الانبار حين غزاها بسر بن ارطاة والي معاوية وقتل واليها وسلب نساءها وقد بين الامام ذلك في خطبة مشهورة دعى فيها الى الجهاد.

٢- جباية الخراج:- يمثل الخراج الاساس الاقتصادي لبناء الولاية لان من خلاله تتوفر الاموال اللازمة لبناء الجيش واعداد المقاتلين وتوفير مستلزمات ادارة الدولة ودفع الرواتب للعاملين في ادارة الولاية واستيراد ما يلزم من مواد البناء والغذاء ومن هنا تأتي اهمية تحصيل الخراج لانه يمثل المورد الاقتصادي للولاية وقد حدد الامام اسلوب تحصيل هذه الضريبة وربطها بأعمار الارض وبالاستطاعة. وقد اناط الامام مهمة جمع الخراج والاشراف عليه بالولاية لأهميته في بناء الدولة.

٣- اصلاح اهلها:- ان صلاح اهل البلد من اكثر الامور اهمية وهو الذي يعين الوالي في ادارته البلاد ويساعده في اداء مهماته وتنفيذ ما يراد منه لان سكان البلاد على مختلف طبقاتهم هم اداة التنفيذ التي يعتمد عليها الولاية ولكن كيف يقوم الولاية باستصلاح اهل البلاد التي يتولون ادارتها. لقد حدد ذلك امير المؤمنين بالعدل والمساواة واعطاء كل ذي حق حقه وانصاف المظلوم وادانة الظالم وابعاد المفسدين واختيار الحاشية والنظر في امور الناس هذه وغيرها تجعل اهل البلد يداً واحدة وعقلاً واحداً في التصدي لما يواجه بلدهم من مخاطر وبخلافه يتفرق الناس شيعاً يقتل بعضهم بعضاً ولايستطيع الولاية عمل شيء يعيد الامور الى نصابها.

-عمارة بلادها:- لكل وال خطته وطريقته في اعمار البلاد التي يتولى امرها ولذا ترك الامام الامر مطلقاً ولم يحدده انما يخضع لاجتهاد الولاية ونشاطهم وهي مهمة ينهض بها المسؤولون عن ادارة البلاد فيضعون الخطط لمشاريع الاعمار من استصلاح الارض وبناء الصناعات وتوفير المواد الاولية للعمل وشق الانهار وبناء المعامل لصناعة السلاح وتصدير ما يفيض عن الحاجة وهذا كله يمثل انعاش الحال الاقتصادي لأبناء تلك البلاد ولذا ربط الامام بينه وبين الخراج فلا خراج بدون اعمار. وهذه المهمة من المهمات الكبيرة التي يضطلع بها الولاية وتقاس عمارة البلاد بقدرة الوالي ونشاطه. وهذا ما نجده الآن ماثلاً في ادارة المدن والمحافظات. لقد ربط الامام كل هذه الأسس والواجبات بتقوى الله فأنها من اهم الواجبات عند الامام (ع) وبدون تقوى الله لا يمكن للوالي ان ينهض بهذه المهمات لانها الاساس في كل حير وتوفيق ودرء كل شر وفشل ومن توكل على الله وأطاعه ظفر ومن عصاه خسر. وحين ننظر الى هذه الاسس نجدها مترابطة

مع بعضها ويكمل بعضها بعضاً وهي تمثل الصورة المشرفة لكل والٍ في كل زمان ومكان وليس مالك الاشر فقط وهو ما اراده الامام من هذا العهد. وقد جعل الامام هذه الاسس بمجموعها من اهم الاهداف التي يسعى الولاة للوصول اليها.

الابعاد التي حددها الامام في عهده

ان ما ورد في هذا العهد وثيقة عمل لبناء مجتمع ينشده الدين الاسلامي ومقيد بالقرآن الكريم والسنة النبوية فلا غرابة ان يستمد الامام ما ورد في عهده لمالك الاشر من هذين الموردين وان يتأثر بهما ايما تأثير لذا نجده يبدأ هذا العهد بالأمر بتقوى الله وطاعته والتوكل عليه في كل الامور وهو ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية. ثم حدد الامام طبيعة البلاد التي سوف يتولى مالك الاشر امرها قال: (ثم اعلم يا مالك اني وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول من قبلك من عدل وجور وان الناس ينظرون من امورك في مثل ما كنت تنظر فيه من امور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم)^٩ في النص الذي تقدم ذكره تشخيص دقيق لحال البلاد التي سوف يتولى امرها مالك الاشر. وفيه بيان لما تعاقب عليها من ولاة وفيهم العادل والجائر وقال فيهم ابناء البلاد ما قالو وقد طلب الامام من مالك ان يجعل نفسه معياراً لتحديد موقف الناس من الولاة فيعمل على تطبيق ما كان يرتضيه من اعمالهم ويبتعد عما لا يرتضيه منهم وفي ضوء هذا كان لابد للامام ان يحدد في هذا العهد الابعاد التي تركز عليها طبيعة التعامل مع ابناء هذا البلد وتتمثل هذه الابعاد في الآتي

١- البعد الديني:- دأب الامام علي (ع) في كل وصاياه وكتبه وليس في هذا العهد فحسب ان يذكر من يخاطبهم بتقوى الله ويوصيهم بطاعته والالتزام بأوامره ونواهيه كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية ومراعاة تعاليم الدين الحنيف في التعامل مع الناس لان هذه الامور هي المعيار الحقيقي لأقامة العدل والمساواة ومعرفة الحقوق والواجبات في المجتمع الاسلامي المنشود وبخلاف ذلك سوف لا يستطيع الناس العيش بحياة حرة كريمة ومن هنا كانت البداية في هذه العهد (امره بتقوى الله وايتار طاعته وأتباع ما امر به في كتابه ومن فرائضه وسننه التي لا يسعد احدٌ ألا بأتباعها ولا يشقى احدٌ ألا بجدودها)^{١٠}. ان معيار السعادة والشقاء في هذا النص هو القرب والبعد عن اوامر الله ونواهيه فالسعيد من اتقى الله وأطاع اوامره ونواهيه والشقي من جردها وأنكرها. ولكن ماذا يترتب على هذا المعيار؟

ان اول ما يترتب على هذا هو كبح النفس لأنها امارة بالسوء ولذا نجد الامام يحذر من الاندفاع وراء رغبات النفس الانسانية ويقول (وأمره ان يكسر نفسه من الشهوات ويزعها عند الجمحات فان النفس أمارة بالسوء ألا ما رحم ربي) ^{١١} ويبدو في هذا النص اثر القرآن الكريم واضحاً في كلام الامام (ع) ومما يتصل بهذا الجانب يؤكد الامام ان على الوالي مهما كانت قوته وسلطته ان يتواضع امام ارادة الله وقدرته ولا يجوز لأي كان ان يطاول الله في عظمته والتشبه به في جبروته يقول محذراً (واياك ومسامات الله في عظمته والتشبه به في جبروته فإن الله ينزل كل جبار ويهين كل مختال) ^{١٢} انه درس يقدمه امير المؤمنين في الطاعة والتواضع امام قدرة الله وعظمته لأنه هو الخالق وهو الرزاق وهو القادر على كل شيء وما على العباد سوى اطاعة اوامره والالتزام بنواهيه وإتباع ما ورد في كتابه من سنن وقواعد وان على الوالي ان يلتزم بما هو صالح من السنن التي سبقتة وسار عليها السابقون وتألفت عليها صدور الامة ويقول (ولا تنقض سنة سالحة عمل بها صدور الامة واجتمعت بها الالفه وصلحت عليها الرعية) ^{١٣} في هذا النص تأكيد على ان الولاية الجديدة لا تلغي الصالح من اعمال الولاية السابقة مما تألفت عليه قلوب الرعية واتفق مع شرائع الاسلام السمحة لقد جعل الامام نجاح الوالي مرتبطاً بإقامة فرائض الله كاملة غير منقوصة مهما كان الجهد الذي يبذل فيها، لان صلاح الملك مرتبط بطاعة الله وتوفيقه.

٢- البعد السياسي:- اخذ هذا الجانب مساحة واسعة من هذا العهد وكان من اهم المرتكزات التي تحدثت عنها الامام في هذا النص ولا غرابة في ذلك لان هذا العهد يتصل بولاية بلاد اضطربت فيها الامور وتكاثرت فيها الاحداث وتألبت عليها الاعداء ويمكن ان نلحظ جوانب عدة تتصل بالبعد السياسي والغرض منها انصاف الناس وحماية البلاد من التفريق وصد الاعداء الطامعين وتمثل هذه الجوانب بالآتي:- أ- انصاف الناس على اختلاف طبقاتهم من نفسه اولاً ومن المقربين اليه ثانياً . ويمثل هذا مبدأً من اعظم مبادئ العدالة الانسانية ومن اهمها في ادارة البلاد لان فيه تركيزاً على ان يبتعد الوالي ومن يحيط به من البطانة عن استغلال مناصبهم في ظلم الرعية وانزال الظلم بالأخريين لان في هذا غضب الله سبحانه يقول (انصف الله وانصف الناس من نفسك ومن خاصة اهلك ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده... وليس شيء ادعى الى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من اقامه على ظلم) ^{١٤}

العدل من اهم مرتكزات الحكم لان فيه رضا الله وأول عدل يمارسه الوالي هو انصاف الناس من نفسه وحاشيته لان هؤلاء هم الاقرب الى ظلم الناس واستغلال مكانتهم وتوظيفها لظلم الناس لقد كان الامام دقيقاً في تشخيص هذا الخلل الذي كثيراً ما يقع فيه الولاة انفسهم او تستغل حاشيتهم ضعفهم وتعذو على الرعية ظلماً ومن هنا نجد الامام يربط بين عدالة الوالي ودوام حكمه وبين ظلم الوالي وزوال حكمه.

ب- اتباع سبيل الحق فيما يعرض له من امور وليكن احب الامور حين الاختيار اوسطها في الحق وأعمها في العدل واجمعها لرضى الرعية. ويؤكد الامام من خلال ما ذكره على ان الوالي عليه ان يكسب رضا العامة التي تمثل الاكثرية الغالبة من الرعية وهذا هو الاساس في الحكم العادل والذي يحيد عنه كثير من الولاة فيقبلون طرفي المعادلة ويحرصون على رضا خاصتهم وبطانتهم اولاً ولايعنيهم رضا الكثرة الغالبة من ابناء الشعب يقول (**فأن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة**)^{١٥}. الامام عليه السلام يضع امام الوالي طرفين الاول عامة الناس وهو الاكثر والثاني خاصة الوالي والمقربين منه. وعلى الوالي ان يوازن بين طرفي المعادلة وان يهتم برضا عامة الناس دون خاصتهم لأنهم الأكثر والأغلب وحين يفقد الوالي رضاهم عنه تحدث الاضطرابات والإشكالات التي تقض مضجعه وتفشل ادارته انها الدقة العظيمة في التشخيص لكل ما يواجهه الوالي في عمله.

ج- ابرام العهود والمواثيق:- كل الولاة يتعاملون مع اقوام اخرى مجاورة لبلادهم ويرتبطون بعلاقات حسنة او سيئة مع هذه الاقوام وقد تتعرض بلادهم الى غزو الاعداء وينشب القتال وتحتدم المعارك وقد تنتهي هذه المعارك بالنصر لأحد طرفي النزاع او تؤول الى عقد الصلح والتراضي بينهما والإمام يطلب من ولاته قبول الصلح حين يعرضه العدو عليهم ويستعمل في ذلك صيغة التوكيد للدلالة على اهمية هذا الامر لان استمرار القتال ليس فيه فائدة يقول (**ولا تدفن صلحاً دعاك اليه عدوك والله فيه رضى فأن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك**)^{١٦} لكن الامام لم يترك الامر على اطلاقه وإنما قرن ذلك القبول بالحدز كل الحدز من هذا العدو بعد الصلح ربما كان هذا العدو يببب وراء ما طلبه من الصلح شراً ويريد ان يستغل مثل هذا الصلح ليتغفل المقابل فيغدر به وقد كانت للأمام تجربة في مثل هذا في معركة صفين حين طلب اهل الشام الصلح وكان الامام يعرف ما يريدون فقال كلمته المشهورة (كلمة حق يراد بها باطل) وكانت النتيجة المعروفة لهذا الصلح. ولم يهمل الامام التنبيه على اهمية الالتزام والوفاء بكل ما ورد

في الصلح حين عقده لان العرب تعظم الوفاء بالعهد حتى قبل مجيء الاسلام لان الوفاء بالعهد سمة من سمات العرب. وهم يلتزمون بها مهما كانت النتائج.

د- حسن الاختيار :- وهو جانب مهم من جوانب العمل السياسي لان الوالي لا يستطيع ادارة الولاية بمفرده وإنما يعتمد على اشخاص يقومون بإدارة البلاد ويساعدون الوالي في ادارة البلاد وعلى هؤلاء الاشخاص يتوقف صلاح البلاد وفسادها لذا نجد الامام(ع) يفرد مساحة واسعة للحديث عن اختيار هؤلاء من كتاب وقضاة وقادة وفي ضوء هذا يحدد الامام المواصفات التي يريدها وأهمها :-

١- ان لا يكون من الباحثين عن عيوب الناس والوشاية بهم عند الولاية وتعظيم ما هو صغير قصد الانتقام
٢- ان لا يكون ممن يثيرون الاحقاد والضغائن بين الرعية ويحاولون نشرها بين الناس من اجل خلق الاشكالات

٣- ان لا يكون من البخلاء فيقف في وجه كل خير يريد الوالي اعطائه ولا جباناً يضعف العزائم ويحد من قوة الوالي في اتخاذه القرار في الامور الصعبة لان الجبن والحرص والبخل غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله

٤- ان يكون من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والقائلين بالحق ولو على انفسهم لأن ذلك اساس العدل ودوام الملك.

هـ- رجال القضاء:- القضاء مفصل من اهم المفاصل التي ترتبط بسياسة الدولة وهذه المهمة لا يمكن ان ينهض بها إلا من كانت له مواصفات خاصة لذا كان العرب يحرصون كثيراً على اختيار القضاة الذين يتولون الفصل في المنازعات. وقد وضع الامام في عهده طائفة من الصفات التي يجب توافرها فيمن يتم اختياره للقضاء يقول (ثم اختر للحكم بين الناس افضل رعيته في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر في الفيء الى الحق اذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم دون اقصاه ، وأوقفهم في الشبهات وأخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم. وأصبرهم على تكشف الامور واصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدنيه اطراء ولا يتسميله اغراء)^{١٧}

صفات تكاد تنبض بالحياة وترسم صورة رائعة للقاضي الذي يمثل سلطة الدولة وليس من اليسير ان نجد شخصاً تتوفر فيه كل هذه الصفات ومن هنا تبدو مهمة اختيار القضاة صعبةً جداً. ولكن لماذا يريد الامام كل هذه الصفات في القضاة؟، لان القضاة هم اساس العدل والانصاف وهما من اهم المرتكزات التي تقوم عليها سياسة الدول قديماً وحديثاً.

٣- البعد الاجتماعي:- الامام علي (ع) مصلح اجتماعي من الطراز الاول وما ورد في عهده لمالك الاشرى يمثل دستوراً لبناء مجتمع اسلامي مثالي يقوم على احداث الاسس التي تبني عليها المجتمعات الانسانية المتطورة وأول عمل بدأ به الامام في هذا الاتجاه هو تقسيم المجتمع الانساني على طبقات تقدمت الاشارة اليها وقد حدد الامام الترابط الوثيق بين هذه الطبقات بحيث لا يمكن ان تستغني احداها عن الاخرى وقد تمثلت هذه الطبقات بطبقة الجنود وطبقة الكتاب العامة والخاصة

وطبقة القضاة وطبقة التجار واهل الصناعات وطبقة اهل الذمة وطبقة العامة من ذوي الاحتياجات. ان هذه الطبقات مثلت تقسيماً دقيقاً للوجود الانساني في هذه الولاية. ولم تكن هذه الطبقات بمعزل عن بعضها وإنما كانت تتكامل في ما بينها لبناء المجتمع المصري وهي ترتبط مع بعضها بروابط اجتماعية واقتصادية ودينية وخدمية وسياسية مما يجعلها وحدة متماسكة تمثل هذا المجتمع الذي يتولى مالك الاشرى ادارته ومن هنا جاء توجيه الامام الى الولاية بصورة عامة ومالك بصورة خاصة برعاية هذه الطبقات ومراعاة الاحوال والظروف التي يعيشون فيها وإفشاء العدالة في ما بينها والابتعاد عن الظلم وسفك الدماء يقول (اياك والدماء وسفكها بغير حلها فإنه ليس شيء ادعى لنقمة ولا اعظم لتبعه ولا اخرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها)^{١٨}.

انها حرمة الدم التي امر بها الله سبحانه وتعالى فلا يحل لمسلم ان يسفك دماً في غير محله وتمثل حرمة الدم ظاهرةً دينية واجتماعية وعلى المسلمين الالتزام بما أمر به الله سبحانه وتعالى فلا يحل لمسلم قتل اخيه المسلم لان ذلك مدعاة لغضب الله وزوال النعمة ومن هنا جاء تحذير الامام للولاية من الاسراف في سفك الدماء في غير محلها لانها تكون سبباً في زوال النعمة والملك ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً وقد تمثلت مظاهر البعد الاجتماعي في عهد الامام علي لمالك الاشرى بالآتي :-

أ- ان يتذكر الوالي الفضل للمتقدم من حكومة عادلة وقيادة مخلصه وان يسلك الطريق نفسه ما دام فيه صلاح الامة وفي هذا يعلمنا الامام الخلق الرفيع والأدب العظيم وهو درس عظيم في الاخلاق.

ب- التواضع امام الناس مهما يكن مستواهم وصنفهم فلا يحق للوالي ان يكون مزهواً بمنصبه ومعجباً بشخصيته وقدرته وكلما دعت نفسه الى ذلك عليه ان يتذكر قدرة الله عليه وقدره من ولاه. انه درس في عدالة الوالي

ج- التواضع امام الناس مهما يكن مستواهم لان التواضع من سمات العظام من الرجال وهو صفة من الصفات التي ذكرها القرآن الكريم ومن خصائص الاسلام العظيم قال تعالى (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) لقمان/١٨. فالوالي في نظر الامام ينبغي ان يكون بعيداً عن التكبر على الناس وان لا يأخذه الزهو والإعجاب بما فيه من منصب وان يكون احسانه شاملاً لعموم الرعية وان يكون صادقاً مع رعيته فلا يخلف لهم موعداً ولا يستعجل الامور قبل أوانها قال (واياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك فيها وحب الاطراء فان ذلك اوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من احسان المحسنين)^{١٩} ان الامام استعمل في هذا النص اسلوب التحذير لينبه الى مرض خطير يصيب الولاة ويحذر منه لأنه من حبائل الشيطان التي يريد من خلالها تشويه صورة الدين الاسلامي. وخلاصة ما يمكن قوله في هذا العهد الكبير انه يمثل دستور عمل للدولة الاسلامية التي جاء بها الرسول الاعظم (ص) وهو ورقة دائمة يستفيد منها المحدثون كما افاد منها القدامى في ادارة الدولة الاسلامية . وليس بخافٍ على احد من الدارسين ان هذا العهد قد افاد منه كثير من المنظمات الانسانية وترجم الى اكثر من لغة لما فيه من ابعاد تنظم الحياة الانسانية في المجتمعات المختلفة ولم يكن أثر هذا العهد مرحلياً او ملائماً لنوع محدد من المجتمعات. وإنما كان اثرة مرافقاً للحياة في مراحل تطورها المختلفة ويمكن تطبيقه على كل مجتمع سواء أكان ذلك في العالم الاسلام أم في غيره لأنه يمثل وثيقة صالحة لكل عصر وزمان وما فيه من ابعاد ينطبق على كل مجتمع مهما كان مكانه او زمانه وقد ضمنه الامام خبرته في ميادين الحياة كافة في سياسة ودينية واجتماعية

ليكون دستور عمل لكل من يتولى امور شريحة او ولاية من الولايات الاسلامية بصورة خاصة والعالمية بصورة عامة. ان الامام علي (ع) هو باب مدينة العلم ووصي الرسول وقائد المؤمنين وضع لنا هذه

التحفة الأدبية بما هو معهود لديه من بلاغة القول ورصانة الأسلوب وبيان المعنى ليفيد منها العالم كله في ادارة شؤون البلاد والعباد.واسأل الله التوفيق في ما اقدمت عليه.

الهوامش

- ١- الكافي الكليني ١٣٠/٢
- ٢- بحار الانوار المجلسي ١١٥/٤
- ٣- نهج البلاغة / ٥٠٥
- ٤- نهج البلاغة / ٥٠٨
- ٥- نهج البلاغة / ٥١٢
- ٦- نهج البلاغة / ٥١٠
- ٧- نهج البلاغة / ٥١٤
- ٨- نهج البلاغة / ٥٠٠
- ٩- نهج البلاغة / ٥٠٠
- ١٠- نهج البلاغة / ٥٠٠
- ١١- نهج البلاغة / ٥٠٠
- ١٢- نهج البلاغة / ٥٠٢
- ١٣- نهج البلاغة / ٥٠٥
- ١٤- نهج البلاغة / ٥٠٢
- ١٥- نهج البلاغة / ٥٠٢
- ١٦- نهج البلاغة / ٥١٨
- ١٧- نهج البلاغة / ٥٠٨
- ١٨- نهج البلاغة / ٥١٩
- ١٩- نهج البلاغة / ٥٢٠